سلسلة ورقة بحث (١٢)

العقبات الفكرية
في
البحث المقارن

ميثاق طالب كاظم الظالمي

العقبات الفكرية

في

البحث المُقارن

ميثاق طالب كاظم الظالمي

يُنقل في بعض الأدبيات أن هنالك سمكة تسبح في الماء وكانت هذه السمكة مُستقرة الحال لم تعرف على طول حياتها الخوف والقلق من الصياد الذي كانت تسمع من بعض الاسماك بأنه من أخطر الأشياء التي يمكن أن تواجهها السمكة في حياتها ، وكانت تلك السمكة تستغرب مما يُذكر أمامها من أوجاع الشباك وآلامها، وهي لم تحترق يوماً أو حتى تلسع من حرارة الشمس المُحرقة ، وكان السمك الذي تسمع منه كل هذه المُفردات هو بمثابة السمك الذي يمتلك الحكمة لصياغة قاموسٍ لغويٍ في ذلك ،مما جعلها تستمع منهم لأهم مفردة يرددونها امامها (الماء) وبأن الماء هو أهم شيء وأنه إكسير الحياة وأنه الجوهرة الفريدة لبقاء نوعهم ، وكانت تلك السمكة تسأل أين هو ذلك الشيء الذي أسمه الماء ؟ لماذا لا أراه ؟ لماذا لا اشعر به إذا كان هو السبب لبقائي ؟ لكن كما تقول القصة فإن الموج دفع بتلك السمكة خارج الماء وإذا بروحها تتقطع من شدة العطش وقلبها بدأ يتصخّر من شدة الجفاف وجسمها يتمزق احتراقاً من حرارة الشمس وعندها أدركت تلك السمكة ما هي تلك الكيمياء وما هو ذلك الإكسير السحري الذي كانت تنغمر فيه طوال حياتها ذلك الشيء الذي اسمه الماء ، أدركت ذلك حين بدأت تتلوى من الألم وامتد لسانها وهي تسمع صوت الماء وهديره وتتحسر على ما فقدته وما لم تعرفه إلا بعد فوات الاوان .

ربما تكون هذه الحكاية ذات العبرة بداية جيدة لفهم عبارتهم الشهيرة (إن الأشياء تُعرف بأضدادها) فالسمكة في قصتنا لم تكن لتعرف ما هو الماء إلا بعد فقدانه وهذه العبارة نجدها واسعة التطبيق في مفاصل حياتية متنوعة فالإنسان الذي يرى النور يعرفه لأنه قد يوجد أو قد لا يوجد فهو موجود في مكان وغير موجود في مكان آخر ،أما لو كان النور شائعا في العالم كله وبصورة دائمة ومستمرة فلا توجد أي ظلمة وعندها يكون ذلك الانسان أجهل ما يكون بالنور ويكون النور عنده هو الشيء الذي لا يعرفه مطلقاً ، فاستدل من أعتقد بهذه الفكرة أن النور لا يمكن معرفته إلا بمعرفة ضده فهذه الفكرة والمقولة الاستدلالية ذات الصياغة المنطقية صارت ذات استعمال غير ضيق في المساحة العلمية . وما يهمنا من هذه المقولة ذات الهيئة المنطقية هو أنها صارت اساساً فكرياً للبحوث المقارنة كما سنبين ذلك في حينها ، وما يهمنا هو البحث عن الاصول المنطقية للبحث المقارن والتحقق من مدى صحتها وصحة الحدود العلمية لنتائجها .

وسنبدأ بعرض أسئلة قد تنفع كبداية للغور في المفاصل الرئيسة في البحث.

وما يمكن أن نسأله بداية :

هل أن المعرفة التي تولدت من معرفة الأضداد هي القوة المحركة لتطور جهة مهمة من الفكر باتجاه مختلف لمعرفة الأشياء عموما ؟ وهل أن التحقق من دراسة تلك الأشياء لم يكن على أساس اختلافاتها عموماً بل على أساس تضادها بالخصوص وبالتالي صناعة ما أسموه بالدراسات المُقارنة ؟

كذلك لابد ان نُعَرِّف القارئ ضمن هذه الحدود ما هي تلك الدراسات المُقارنة وما هي أهميتها الاكاديمية ؟

إن الاجابة على هذه الأسئلة تجعلنا امام مهمة البحث عن نشأة ذلك النوع من الدراسات ، فلو كانت المقولة أن الاشياء تُعرف بأضدادها صحيحة وأن الدراسات اعتمدت عليها كان لابد من معرفة نشوء تلك الفكرة ، وإذا كانت هذه الفكرة غير صحيحة وأن الدراسات اعتمدت عليها ـ على فرض عدم صحتها ـ كانت تلك الدراسات بحاجة إلى إعادة نظر ، أما إذا كانت تلك الدراسات لها مناشئ أخرى فكرية فلا تحتاج إلى إدخال هذه الفكرة المعرفية إلاّ أن تكون صورة لذلك النوع من الدراسة لا سببا فعلياً لنشوئها .

ثم هل أن هذه الفكرة توسعت لتكون منهجاً فكرياً يمكن استعماله كدراسات مستقلة ، ونوعاً بحثياً له نقاطه الإيجابية والسلبية ؟

بحسب تتبعي فإن هذه الفكرة لاستكشاف المعرفة لم تكن سبباً واضحاً في ولادة مناهج فكرية ، لكن بحسب ما وقع ضمن نطاق بحثي فإنهم أرجعوا الدراسات المُقارنة والبحوث المُقارنة إلى هذا التأسيس الفكري واعتبروا أن المناهج والدراسات المُقارنة من نتاجات تلك الفكرة المعرفية.

وإن كنت أرى أن الدراسات المُقارنة تختلف بلحاظ الدقة العلمية فيما بينها وبين المنهج المُقارن من جهة وبين هذه الفكرة المعرفية المتعلقة بمعرفة الأشياء من أضدادها من جهة اخرى ، ولبيان هذا الاختلاف العلمي قد تواجهنا مشكلة وهي الاختلاف بين هذه القاعدة وبين أي شيء آخر نقارن معه ، لأن ايجاد الاختلاف هو دراسة مُقارنة (وإن كان لا دليل على ذلك تحديداَ) وهو يتطلب أن نفهم آلية تلك الدراسة المُقارنة وكيفية عملها كي نضع دراسة مُقارنة بين هذه الفكرة المعرفية وبين المناهج المُقارنة والدراسات المُقارنة الأخرى ، أما مع فقدان هذه الدراسة المُقارنة ، فكيف نستطيع أن نفرق بين هذه الفكرة وبين ما نحتمل انها من نتائج تلك الفكرة أي المناهج والدراسات المُقارنة ؟

وبالتالي ها نحن نجد أنفسنا امام عقبة ليست بالهينة وهي أن نفس الفكرة التي نريد أن نفرقها بالمُقارنة مع غيرها تحتاج إلى توسط

فهم كيفية عمل الدراسات المُقارنة لأجل صناعة مناهج المُقارنة ثم استعمالها في التفريق البحثي المطلوب.

إن أول خطوة أُحاول أن اكتشفها الآن هي ايجاد المستوى التفريقي بين هذه الفكرة وبين الدراسات المُقارنة ، قد أُتعب القارئ قليلاً لكن ها انا اجد نفسي أمام دراسة مُقارنة للتوصل إلى نتائج الدراسة المُقارنة وأرى نفسي أطرح سؤالاً ها هنا :

لماذا احتجت الى معرفة الدراسة المُقارنة لكي أعرف أن الاشياء تُعرف بأضدادها التي اعتبروها الاصل المنطقي لذلك النوع من الدراسات واحتجت إلى معرفة ودراسة الدراسات المُقارنة كي نكتشف اشتراكها وافتراقها عن تلك الفكرة المعرفية ؟

ولا ينفع هنا الجواب بأن ما تم عرضه للتفريق نتيجة لسؤال تم طرحه حول فهم هذه الفكرة المعرفية لأنه سيكون هنالك سؤالاً اتجاه ذلك السؤال نفسه وهو : لماذا حينما أردنا أن نعرف ونتعقل فكرة (معرفة الأشياء بأضدادها) احتجنا أن نقارنها مع غيرها أو احتجنا أن نقارنها مع الدراسات المُقارنة تحديدا ؟

لا يخفى على القارئ لماذا لم نتعامل مع فكرة معرفة الاشياء بأضدادها من دون الدراسة المقارنة مع غيرها فأتعامل مع مفرداتها مباشرة فأسأل ما هما الضدان ؟ وما هي المعرفة من دون الحاجة الى

مقارنتها مع غيرها ، والسبب ذكرناه قبل قليل وهو أننا حتى نعرف شيء (كالمعرفة بالضدين) ظهر لنا بحسب التدوين العلمي احتمال تشابه بينها وبين غيرها ، وأعتقد أن تفكيري اوجد حالة من التقارب بينهما وهذا بحد ذاته أمر غير دقيق علمياً من دون دليل على ذلك التقارب ، إلا أن الذي يخفف الوطء هو إرجاع الدراسات المقارنة في فلسفتها إلى تلك القاعدة .

ربما أجد تفسيراً للمُقارنة مع الدراسات المُقارنة وهو أن بعض من نظر للدراسات المُقارنة أرجع هذا النوع من الدراسات إلى تلك الفكرة المعرفية ، قد يكون هذا مسوغاً لنا أن نعرض هذه الفكرة ونجعلها ضمن حيز الدراسة المُقارنة لكن هذا لا يمنع من ولادة سؤال آخر : لماذا التُقطِت هذه الفكرة من هذه الدراسات ؟ ولماذا أرجعوها إليها ؟ هل لأنها حقيقة هكذا أم لأنها مجرد نقل تم توارثه بعد ولادته التدرجية من فكرة معرفية مسبقة لا نعرفها ؟

وعلى كلا التفسيرين فالسؤال لم ينقطع إلى هنا فنقول : لماذا اندفعنا لمعرفة تلك الفكرة المعرفية لفهم هذه الدراسات المُقارنة ؟ ولكي استمر في فهم تلك الفكرة المعرفية فعلى الاقل يجب أن افرق بينها وبين البحوث والدراسات المُقارنة ، ولكي افرق بينهما احتاج أن أسلط الضوء على الدراسات المُقارنة بشكل مستقل .

لكن ما هي القوة الفكرية التي تدفعني أن ادرس شيئاً آخراً غير ذلك الذي بدأت بدراسته ؟ ما هي الآلية التي يعمل ضمن حدودها تفكيري ؟

لأحاول أن اتنازل هنا مؤقتاً وأعرض الدراسات المُقارنة بحسب ما ذكره بعض منظري تلك الدراسات كي اتخلص من هذه الدوامة الفكرية التي علقت بها اثناء تناولي لهذا البحث وإن كنت لست راضياً عن نفسي أن اتبع منهجاً دراسياً لم افسره إلى الآن ولم أفسر طريقة عمله ، قد يلومني المفكر الصارم على تنازلي هذا ويعتبره انسحابا علمياً مُوشحا بالدبلوماسية غير المقبولة في مثل هذه المجالات العلمية إلا أن ما يمكن أن ابرر به خطوتي هذه هو أن نفس عملية التنازل هي عملية التفافية مؤقتة نستعملها لتحريك البحث العلمي ومراقبة سيره ثم نعيد دراسة الموضوع بعد مراقبة حركته ، ربما هذا التبرير ايضا غير مقبول لكن هذا ما استطعت أن أصل اليه ضمن حدود تفكيري للسير ـ على الاقل ـ خطوة نحو البحث العلمي .

وها انا أجد نفسي مضطرا من الناحية البحثية لا من الناحية الفكرية من دراسة البحث المُقارن وتسليط الضوء على الدراسات المُقارنة كخطوة اولية لفهم ـ بطريقة تنازلية مؤقتة ـ الفكرة المعرفية التي تتكئ عليها البحوث المقارنة .

سأحاول أن أسلط الضوء على الدراسات المُقارنة والبحوث المُقارنة لأتعايش عن قرب مع الانطباعات الفكرية والنفسية التي تتركها دراسة هذا النوع من البحوث كنتاج مستقل ثم أراقب الفكر عن كثب لأرى هل تغيرت فكرته عن الصورة الأولى المجردة عن أي شيء آخر .

والسير بهذه التجربة الفكرية قد يفتح لي اسلوباً جديداً لم أكن مُلتَفِتاً اليه للتخلص من بعض المشاكل الفكرية التي عرضتها .

فقالوا : إن الدراسات المُقارنة تُعد من الدراسات التي حظيت بأهمية واسعة على الصعيد الأكاديمي وذلك من خلال تسليط الضوء على الآراء المختلفة والاتجاهات الفكرية المختلفة احياناً بدرجة مقبولة والمُتناقضة احياناً اخرى في حقول متنوعة من المعارف البشرية مما يُفضي إثراءً للمضمون وتطويراً للأفكار وتوسيعاً لدائرة البحث حتى أنهم قالوا (إن الأشياء تُعرف بأضدادها) والملفت للنظر أن هذا الاثراء والتوسيع سواء كان على مستوى دراسات اكاديمية مقارنة او على مستوى التناقض والصراع المُحتدم بين التيارات الفكرية المُتعاكسة في الرؤى والأيدولوجيات والمُنتجة في النهاية لتوجهات اجتماعية وحركات سياسية تساهم في صناعة معرفة جديدة لم تتحقق من تفصيل واستقلالية تلك التيارات المُتجردة عن قوة المُقارنة مع غيرها فتلقي بظلالها على المستويات العلمية والثقافية في فكر

الفرد وبالتالي ايجاد معرفة على الصعيد الجمعي وتياراً اجتماعياً بشرط تكرارها وتركيزها وتأكيدها في بيئة ذلك المجتمع ، وقد اشترط منظرو هذا النوع من الدراسات لتحقيق الحالة المرجوة منها أن يراعى فيها الموضوعية وأن تؤخذ المعايير العلمية بعين الاعتبار وهذا النوع من الدراسات يمكن أن يشار إليه أيضا بمصطلح البحث المُقارن الذي عرّفوه بأنه مقارنة بين شيئين او معرفتين أو تيارين او اتجاهين او أكثر مع دوافع ورغبة الباحث في كشف النقاب عن خفايا كبيرة او صغيرة لا يمكن ملاحظتها بوضوح في احدهما من دون دراسة الآخر ولأن غاية هذا النوع من الدراسات هو كشف الخفايا بالمُقارنة فهو غالبا ما يحاول الاستفادة من أي تخصص علمي ويمكن أن يلاحظ اشتراك عدة تخصصات بحثية في دراسة واحدة .

وهذا بدوره جعل منظري هذا الاتجاه من الدراسة يسعون إلى ايجاد حالة اتفاقية تقريبا بعدم وجود منهجية خاصة بالدراسات والبحوث المُقارنة وبالتالي صار البحث المُقارن عند منظريه من البحوث ذات المرونة العالية في الحركة بين طياته العلمية إلا أن هذه المرونة يمكن أن تكون مصيدة جيدة عند غير اصحاب هذا النوع من البحوث إذ إنها قد تكون سبباً في هشاشة البحث لعدم القدرة على ايجاد ترابط كلي بين تلك البحوث وصعوبة الجمع بين تلك التخصصات لمجرد صناعة بحث مقارن.

وغالبا ما تكون الدراسات المُقارنة ذات اعتماد على التحليل البياني الكمي أكثر من التحليل الكيفي وإن كان هنالك نوعاً من الدراسات المُقارنة تعتمد عليه (اي الكيفي) اسموها الدراسات المُقارنة السببية التي جعلت دراسة الاسباب المستقلة ومقارنتها هي المحور الرئيسي في مادتهم البحثية.

هذا شيء مما ذكروه وما دونته اجمالاً بخصوص هذا النوع من الدراسات البحثية ، وبعد اطلاعي على ما ذكروه - بحدود تتبعي - لم اجد هنالك ارتباطاً علميا قويا بين ما نحن بصدده وما ذكر كنتائج لتأسيس علمي فرغم أنهم أرجعوا البحوث والدراسات المُقارنة إلى الفكرة المعرفية (إن الاشياء تُعرف بأضدادها) لم أجد ما يبرر ارجاعهم لها إلا مجرد ايجاد نسبة غير علمية بدرجة متقنة بينهما إضافة إلى أن دراسة ذلك النوع من الدراسات قد تم بتبنيها من قبلهم من دون دليل علمي متقن كما ذكرنا ثم انطلقوا بتلك الدراسات كنتائج مسجلة على أرض الواقع البحثي ليدرس نتائجها ويبرمج أساسياتها بعد وقوعها مسبقاً.

إن المحاولة التي قمت بها حالياً وهي إيجاد دراسة مقارنة بين الفكرة المعرفية والدراسة المُقارنة لم تعطني نتائجاً قيمة تحكي عن الاساسيات العلمية لهكذا فكرة معرفية ، وأوسع ما تم عرضه هو

الحديث عن مرحلة ما بعد الدراسة المُقارنة والبحث المُقارن بتفاصيل لا تمس بشكل مباشر غرض هذه الورقة.

وها انا أجد نفسي إلى الآن لم أتحرك خطوة واحدة في هذا البحث فإني اردت أن أفهم الاصول الفكرية للبحث المقارن فوجدت أن هذا يستند ـ بحسب التجذير العلمي ـ الى فكرة معرفية لابد لي أن ابحثها ولكي ابحثها فلابد لي من ادخالها في منهج بحثي وهذا المنهج البحثي إما أن يكون بحثا مجردا عن كل شيء مطلقا ومختصا بتلك الفكرة المعرفية وهذا الاتجاه البحثي لا يمكن تصوره بمفرده إلا إذا قلنا بإمكانية خلق التصورات العلمية في الفكر من دون الحاجة الى الاعتماد على أي شيء آخر وهذا مما لا استطيع حتى أن اتخيله بحسب تفكيري ، او دراسة الفكرة المعرفية اعتمادا على البحث المقارن نفسه ولكي ادرسها بذلك البحث احتاج الى معرفة اصول البحث المقارن كي ارجع القضية اليه إذ لا يمكنني أن اتعامل ضمن هذا النوع من الدراسات مع سطحية النتائج واخذها بطريقة مُسَلَّمة كبحث مقارن من دون القبول بجذورها او التحقيق فيها فاذا قبلنا بالجذر المعرفي للبحث المقارن وهو معرفة الاشياء بأضدادها - لكي افهمها او التحقق منها - لابد لي ابتداءً من معرفة ضدها كي افهمها ولأن صناعة مضاد منطقي عقلي لقضية معرفية كاملة كقضية (إن الاشياء تُعرف بأضدادها) فقد احتاج أن أتحرك بجهتين :

أولاهما : أن نصنع قضية منطقية خاصة تضاد تلك القضية والاخرى : أن ننفي تلك القضية بالكامل لنحصل على مضادها فتكون (إن الاشياء لا تُعرف بأضدادها) هذا على فرض أن نقرب تضاد المفردات إلى تضاد القضايا فالنور هو اللاظلمة أو عدم الظلمة أو نفي الظلمة وقد قبل أهل المنطق بهذا النوع من التضاد في القضايا الذي اعتبروه أنه اختلاف في الكيف والكم في قضيتين كليتين وليس مهماً هذا الآن فإن هذه الخطوة في معرفة هذه القضية المعرفية احتاجت إلى خطوة قبلها وهي تفريق هذه القضية على المستوى التعريفي بينهما وبين المنهج المقارن الذي اعتبر نفسه قد ولد من رحم هذه القضية وهذه الخطوة بحسب تفكيري كانت مهمة لصنع فارق تصوري إلا أن مشكلة واجهتني اثناء عملية التفريق هذه فان عملية التفريق تحتاج إلى صناعة منهج تفريقي علمي وهي متوقفة على ضبط منهج للمنهج المقارن ، وهذه الخطوة جرَّت خلفها جملة من الاسئلة التي ذكرتها في بدايات الورقة لا داعي لتكرارها هنا. ولكنها في نفس الوقت كانت عقبة كؤود بالنسبة لي أن أتجاوز الاسلوب التعريفي للقاعدة المعرفية باستعمال المنهج المقارن المتوقف على فهم المنهج المقارن نفسه والذي يفترض أن استعمله لاحقاً في صناعة المنهج المقارن ، ثم أني حين اضطررت متنازلاً ومتسامحاً مع خسارة الدقة العلمية المفترضة وغضضت الطرف مقهوراً تحت دوامة فكري العالق

اردت أن ادرس المنهج المقارن مستقلاً عسى أن تكون تلك الدراسة المستقلة نافعة في حل اقفال هذا المنهج التعريفي ، إلا أن ما أعطته تلك النظرة المستقلة هي مجرد معلومات لم تنفع كثيراً في تجاوز عقبة التعريف بالمنهج المقارن من دون تأسيس علمي للمنهج المقارن نفسه، وربما ازداد الامر تعقيدا بعد أن عرفنا أن المناهج المقارنة اعتمدت على فلسفة معرفة الاشياء بأضدادها وهي الفكرة المعرفية التي حاولت تباعا أن اعرفها من خلال تفريقها عن متعلقاتها وباستعمال المنهج المقارن .

هذه خلاصة لما سارت عليه الخطوات البحثية وبحسب تفكيري لكشف اصول البحث المقارن وبالتالي نفض الغبار عن كنه الفكرة المعرفية (إن الاشياء تُعرف بأضدادها) ولم نتوصل الى نتائج مرضية فماذا افعل ؟ هل أرجع خطوة إلى الخلف وأتنازل عن المنهج المُقارن وأكتفي بشرح القضية (إن الاشياء تُعرف بأضدادها) من خلال دراسة ضدها وهي (إن الاشياء لا تُعرف بأضدادها) فيكون المنهج المتبع في معرفة هذه القاعدة المعرفية هو القاعدة المعرفية نفسها والتي نحن بصدد البرهنة على صحتها ، إذا فعلت ذلك اكون حينئذ قد عدت إلى نقطة البداية نفسها في تفسير هذه الفكرة . إذن حتى التنازل عن ايجاد مقارنة أولية تصورية لعزل الفكرة المعرفية من خلال ترك العجز عن ايجاد بحث مقارن والقفز على هذه الخطوة إلى خطوة

السير بالفكرة المعرفية على نهج نفس الفكرة لا يسعف البحث في تجاوز هذه النقطة اللاعلمية .

وها انا أجد نفسي ثانية وجهاً لوجه مع هذه الفكرة ولا زلت أبحث عن الأسلوب العلمي الذي يفترض أن أسير به للتعامل معها سأغض النظر عن الفشل الذي وصله البحث إلى الآن في التعاطي مع القاعدة على اساس الأسلوب العلمي ، لذا سأفكر بالطريقة التقليدية التي فكروا بها لشرح الاصول الفكرية للبحث المقارن وسأرجع إلى قصة تلك السمكة التي لم تفهم الماء ولم تحط بمعرفته إلا بعد ان غادرته وحُرمت منه ، وكذلك الإنسان الذي لا يعرف النور إلا بعد فقدانه وحصول الظلمة ، فتعاقب الموجودات الصفاتية على موضوع واحد - وهو السمكة في مثالنا او فكر الإنسان أو الوجود الخارجي لموضوع معين - سيكون سبباً في حصول تلك المعرفة الناتجة من ذلك التعاقب الوجودي .

لا يخفى على القارئ المتتبع لسلسلة ورقة البحث إني ذكرت في بعض تلك الورقات صعوبة تحصيل المعرفة بالمثال[1] ، بل إن المعرفة فيها تخضع لفكرة الربح والخسارة ، فكلما ضربنا امثلة لإيجاد

[1] ورقة البحث(١٠) المثال الممنوع

وصناعة حالة بيانية مُعينة فقدنا بالمقابل الدقة العلمية لتلك الحالة واقتربنا أكثر نحو الاستقلالية في المثال والتجرد في محتوياته النظرية .

لذا وبناءً على ما تم تحقيقه هناك فإن امثلة التضاد التي ذكرت لصناعة المعرفة التضادية ـ لو صح التعبير بهذا المصطلح ـ ستكون تحت وطأة اللادقة في شرح التضاد وبالتالي فإنها تفتقد الى الدقة العلمية في صناعة المعرفة التضادية فإن تمثيلهم لمثال النور والظلمة والحرارة والبرودة ، وغيرها من الامثلة ستحتاج إلى تجاوز عقبة المثال اضافة إلى العقبات التي ذكرتها والتي قادتني في النهاية الى نتيجة مخيبة للآمال والعقبات التي سأذكرها تباعا :

منها: عقبة المعرفة المسبقة لضبطها في مجموعة واحدة وكذلك ايجاد العنصر المشترك بينها جميعا ، وهل أن هذا العنصر المشترك قد تمت مراقبته حسياً ام لا ؟ وكذلك السؤال عن كيفية إيجاد ذلك العنصر المشترك بين تلك الأمثلة ؟

لا يمكن بحسب تفكيري ايجاد ذلك العنصر المشترك إلا بإجراء بحث مقارن والبحث المقارن كما ذكرنا هو نتاج وصورة أخرى لقاعدة معرفة الاشياء بأضدادها فصار العنصر المشترك بين مجموعة امثلة الاضداد والتي نحتاجها في صناعة تعريف للضدين وبالتالي تعريف هذه القاعدة صار راجعاً إلى هذه القاعدة المعرفية نفسها ، بل

اننا لو أخذنا أي مثال لضدين تكون معرفة احدهما مؤدية إلى معرفة الآخر سنحتاج إلى خطوة فكرية مهمة وهي إيجاد العناصر المشتركة بينهما والتي جعلت منهما ضدين ، إذ أن تصورنا للضدين أما أن يكون بدراسة الاشياء وإيجاد المختلفات بينها وبالتالي الانتقال إلى المتقابلات لتخصيصها من بين كل تلك المختلفات ثم إيجاد المتضادات بينها ثم هنا نقوم بصناعة معرفة من احدهما بالاستعانة بالآخر ، أو يكون بشكل حالة دفعيه متعاقبة على الحواس وبالتالي على الفكر ، وعلى الشكل الأول من فهم التضاد نظرياً فإن الخطوات التي مرت بها عملية فصل الاشياء منذ خطواتها الأولى لصناعة المتشابه منها والمختلف إلى مرحلة الوصول إلى الضدين كلها مراحل افترضت مُسبقا تأسيسات علمية أهمها المنهج المقارن والدراسات المقارنة بين الاشياء والتي أدت إلى التفريق الترتيبي بين تلك الاشياء وإلا كيف سنتخيل حصول ذلك التفريق بين تلك الاشياء من دون القبول الأولي لتلك الدراسات المقارنة واخضاع الاشياء الى تأسيسات علمية قبلية هدفها ايجاد ذلك التفريق بين تلك المجموعات ثم يستعملون تلك النتائج المُتحصلة من عملية التفريق باستخدام المنهج المقارن في تفسير المنهج المقارن نفسه .

وهو أمر لا يمكن قبوله فكرياً كما هو واضح وبالتالي كيف تم تفسير هذه الفكرة المعرفية (إن الاشياء تُعرف بأضدادها) التي فرضوا

مسبقاً أنها هي الاساس لتلك المناهج المعرفية وربما يتم زعزعة هذه الفكرة بنفي ضرورة رجوع المنهج المقارن إلى الفكرة المعرفية (إن الاشياء تُعرف بأضدادها) وإن المنهج المقارن مستقل في فلسفته ولا داعي لهذا الارجاع إلى تلك الفكرة المعرفية ويمكن ان يجاب على ذلك بأن النظر الدقيق للمنهج المقارن وإلى الفكرة المعرفية سيجعلنا نعتقد بوجود حالة من الترابط بينهما مُتحققة من أن أحدهما يرجع إلى الأخر فقد تكون المناهج المقارنة راجعة إلى أن الاشياء تُعرف بأضدادها أو ربما العكس أي أن هذه الفكرة المعرفية بالحقيقة ترجع إلى المنهج المقارن بعد الذي ذكرناه من أن الفكرة المعرفية بالمعرفة التضادية لا يمكن أن تنشأ إلا بعد تفريق مستمر ومتعاقب بين الاشياء تبدأ من المراقبة الحسية إلى الاختلاف إلى التقابل إلى التضاد بحسب ما ذكروه في تسلسلهم المنطقي ، وبالتالي يمكن أن يكون ما ذكروه من ارجاع المناهج المُقارنة إلى المعرفية التضادية غير صحيح واحتمال التفسير العكسي وارد في ذلك بعد ما قربناه ، فيكون التفكير الذي تم عرضه لهذه الفكرة المعرفية من قبلهم هو صورة لجهة تفكيرية واحدة وبحسب تفكيري يجب أن يضاف لها صورة تفكيرية اخرى وهي التي قربناها قبل قليل .

إذن سيقودنا البحث عند هذه النقطة التي هي محاولة لزعزعة رجوع المنهج المقارن إلى هذه الفكرة المعرفية ، والنتيجة أن هذه

الفكرة تحتمل صورة اخرى معكوسة وهي رجوع الفكرة المعرفية إلى المنهج المقارن وبالتالي على كلا الصورتين سواء كان رجوع المنهج المقارن للفكرة المعرفية أو العكس فإننا سنجد انفسنا امام عقبة فكرية واحدة وهي رجوع المعرفة التضادية إلى المنهج المقارن ورجوع المنهج المقارن إلى المعرفة التضادية (بحسب قولهم).

وحتى لو تنزلنا عما قالوه من رجوع المنهج المقارن إلى المعرفة التضادية للتخلص من مشكلة الدور المفروضة فكرياً فإننا لن نتخلص من الحاجة إلى تفسير المنهج المقارن نفسه وسنتخلى حينها عن المعرفة التضادية وتأثيرها في صناعة المنهج المقارن وهذا بدوره سيكون تاركاً لمنطقة فراغ تفسيرية لإرجاع المناهج والدراسات المقارنة إلى انطلاقة اساسية اولى وربما عدم وجود تلك الانطلاقة في المناهج المقارنة أدى إلى إرجاع تلك المناهج إلى تلك الفكرة المعرفية لكن كيف سيفسر حينها نفي الرجوع إلى تلك الفكرة المعرفية ؟

هنا ستتشكل منطقة فراغ ولا ترجع تلك المناهج المعرفية إلى شيء أبدا فهي ببساطة أما أن ترجع إلى مناهج مقارنة وهذا بحد ذاته مشكلة فكرية من أن ترجع تلك المناهج المقارنة في تفسيرها إلى تلك المناهج إلى مناهج مقارنة ، أو أن ترجع إلى منطقة فراغ غير مُفسرة مجهولة لا نعرفها ، او ترجع إلى الفكرة المعرفية التي نحن بصددها، وهي معرفة الاشياء بأضدادها والتي لا تخلو من امرين : أما اعتبارها

بديهية ليس فوقها بديهية وهو امر غير مقبول علمياً ولا دليل عليه ولا يمكن اعتباره متفرعا من بديهية استحالة اجتماع النقيضين لأن كل هذا لا دليل عليه والمنطق المستعمل في ذلك قد تم مناقشة قضاياه الأم في ورقة (أساسيات علم منطق اللامنطق)[٢] فليراجع القارئ ما ذكر هناك ، أو انها ليست بديهية بل هي فكرة نظرية بحتة تحتاج ان ترجع إلى علم قبل ذلك يدل على وجودها وهو ما ناقشناه في هذه الورقة .

أما النظرة الأخرى للتعامل مع هذه الفكرة المعرفية فهو الاسلوب الدفعي النفسي الذي يظهر لنا حين نتعامل بشكل روتيني مع الاشياء ونعرفها تبعاً لمعرفة مضاداتها فهل حقاً إنني لم أعرف النور إلا بعد معرفة الظُلمة ؟

وهل حقاً إني لم أعرف البرودة إلا بعد معرفة الحرارة ؟ قبل الإجابة على هذه الأسئلة اقول ما معيار تضاد تلك الصفات ؟ ولا اقصد هنا التفريق العلمي فهذا قد تم ذكره ، إن ما اقصده ذلك التفريق النفسي بحسب تفكيري فإن الانسان الذي نقول عنه إنه لم يكن يعرف النور من دون معرفة الظلمة لا وجود له إلا في أدبياتهم المنطقية .

[٢] ورقة بحث (٨) اساسيات علم منطق اللامنطق

وما أراه أن الذي وقع هو عِلْمان حسيان لا أكثر : العلم الأول هو رؤية للأشياء بواسطة النور ، والثاني عدم رؤية الاشياء بسبب اختفاء النور ، والسؤال المهم الذي يمكن عرضه : هل أن المعرفة هنا قد وقعت بعد ذهاب النور أم قبله ؟

هم يقولون وقعت بعد ذهاب النور بحسب استنادهم على فكرة أن الاشياء تعرف بأضدادها ، وما أراه ان بعد ذهاب النور وانعدامه وحلول الظلمة فإن الذي وقع هو انتباه للمعرفة الأولى وليست معرفة جديدة ، وبعبارة أخرى أن هذه الفكرة المعرفية ليست إلا عملية انتباه للعلم الأول المتحقق ، فالذي يرى النور يعلم به وحين يفقد ذلك النور يقع الفكر في مرحلة تحفيزية تنبيهية للالتفات إلى ما فقده الحس ، وبعبارة ثالثة إن الأمر متعلق بديناميكية الحواس وعملها وعلاقتها مع مناطق الإدراك بطريقة تحفيزية .

أما ما ذكروه من أن الاشياء تُعرف بأضدادها فلا أراه بحسب تفكيري إلا وصف خاطئ لعملية التحفيز والتنبيه الفكري وربما يعتبر البعض أن نفس عملية التحفيز والتنبيه هي علم والمقصود من هذا العلم هو ذلك التحفيز الحسي ، إلا أن هذا الاعتبار غير مقبول لأن ما وقع بالحقيقة ليس إلا علماً واحداً مُتحققاً وثابتاً ولم يقع علم آخر أبداً ، بل ما وقع هو تنبيه لذلك العلم الأول الذي لم يأت بعده علم آخر ، وكذلك معرفة الحرارة بالبرودة فحين يسخن جسم الإنسان

فإن حواسه تستشعر الحرارة وحين تختفي الحرارة لتحل محلها البرودة فما تحقق ابتداءً هو علم واحد وما الحالة الثانية إلا تنبيه وتحفيز لِلَفْت الفكر إلى ذلك العلم الواحد المفقود والتحفيز للعلم هو تنبيه له يقع بتحكم الحواس وهو ليس علماً آخراً بحسب ما توصلت اليه في نتيجة البحث .

وهذا التفسير الذي قدمته لأصل البحث المقارن والذي انتهى بهذه النتيجة المختلفة بعض الشيء عن تفسير المناطقة في تحصيل المعرفة من المتضادات لا أراه مقنعا ، فهو اضافة الى تضمنه لا دقية المثال الممنوع فهو دراسة الافكار بطريقة عرض المفاهيم المختلفة فإذا فهمنا اختلاف تلك المفاهيم انها بحث مقارن ليس على المستوى الاصطلاحي بل على المستوى الفلسفي للمقارنة بمعنى الاختلاف فإن ما ذكرته من كلام لا يعدو كونه اثارة للمشكلة بصورة اخرى غير متخلصة من عقبات ما قبلها . وهنا انفتح باب آخر للمناقشة وهو : هل أن الاختلاف المفاهيمي هو شكل آخر من اشكال البحوث المقارنة التي تمتاز بمميزات خاصة تختلف عن البحث المقارن الاصطلاحي؟ إن أي جواب سأذكره هنا لا يخلو من عيوب عميقة أهمها صعوبة الاجابة بعد قبول السؤال السابق المعتمد في صياغته على منهجية بحث خاصة به لم تحدد واذا تم تحديدها فهي سترجع الى عقبات تم ذكرها بين طيات البحث أهمها أن تحديد المنهج يحتاج

الى منهج لتحديده ، وعلى أي حال فهو لا يخلو من اعتماده على منهج مقارن بالمعنى الاصطلاحي له لتحديده إذ على فرض عدم وجوده ـ اي المنهج المقارن ـ فإن أي فكرة لصناعة منهج بحثي لا تعدو كونها فكرة نهائية تتضمن افكاراً في داخلها من حيث الحاجة الى المنهج ابتداءً والحاجة الى منهج لتحديد المنهج وكل هذا لا يمكن أن يتخلى عن البحث المقارن بالمعنى الاعم له ـ بحسب تفكيري ـ اما أني كيف اكتشفت الحاجة الى البحث المقارن فهو امر لا املك تفسيرا له إلا أن ما أراه فكرياً هو أن الاختلاف الذي تعايش مع تفكيري اتجاه الاشياء صار سببا لمعرفتي أما كيف أني أرجعت المعرفة الى تلك الاختلافات فهذا مما لا أملك دليلا عليه إلا أن ما أمتلكه الآن أني لو قمت بمقارنة ما بين شيئين فإني سأحصل على معرفة ، إلا أن هذه الخطوة على فرض صحتها ستفتقد دقة انحصارها بالمثال وكذلك صعوبة تعميمها فهي ستواجه عقبة التعميم بالاستقراء وهو مما لم تتناوله هذه الورقة ، اضافة الى أن الاستقراء يتضمن في تعريفهم مقارنة النتائج فهو بحاجة الى بحث مقارن ضمني إضافة الى أن معرفة السبب تحتاج الى معرفة بالمقارنة والاختلاف إذ لا يمكن أن نتخيل معرفة الاسباب من دون إدراك اختلافاتها ، لكن الغريب أن ما ذكرته الآن ألا يحتاج الى اختلاف لمعرفته ؟ وهذا بدوره يحتاج الى نفس الاسلوب المعرفي ايضا او ربما اسلوب آخر ، إن الاستمرار بهذا

المستوى من التفكير قد يتوسع الى السؤال الذي ذكرته من أن الاختلاف المفاهيمي هل يدخل ضمن البحث المقارن ؟

إن جواب هذا السؤال لا يختلف كثيرا عن الفكرة التي اثيرت قبل قليل من أن اثبات هكذا امر لا يمكن من دون افتراض مثال له يواجه مشكلة الدقة والتعميم وتضمين المقارنة في الاستقراء كما ذكر ذلك قبل قليل في البحث . انا لا امتلك فكرا مجردا من أي اختلاف صوري كي اختبر امكانية حصول المعرفة من دون الاختلاف فأنا اكتب الآن بفكر يحمل كماً معلوماتياً هائلاً وهذا الكم ستتوقف عليه اي معرفة متحصلة منه وحتى المعرفة التي استعملها في فهم ذلك الفكر هي وليدة من فكر مختلف الصور والمعلومات فلا يمكن بعد هذا أن اثبت امكانية تحصيل المعرفة من دون الاختلاف ولا اتمكن من اثبات ما هو عكس ذلك ثم انه حتى الفكرة التي عرضتها الآن من افتراض ذهن لا يحمل الا صورة واحدة فقط ولا يتضمن أي اختلاف فيه قد ولدت من هذا الفكر المتنوع والمختلف معلوماتياً .

انا بتفكيري هذا أجد أن البحث المقارن لا يمكن أن ينفك عن فكرة الاختلاف عموماً بأعلى مستوياتها وأدقها ، إلا أن هذه النتيجة لا تقدم لي شيئا سوى انها نتاج لتفكيري من جهة وأنها تفتقد الى الدقة بالمثال وصعوبة التعميم والتضمين للبحث المقارن الاستقرائي وانها صدرت من فكر لا يمكن إثبات عدم اعتماده على الاختلاف

والبحث المقارن او اعتماده عليهما في اكتساب المعرفة من جهة اخرى .

والنتيجة التي توصلنا إليها إلى هنا أن البحث المُقارن المستعمل في البحوث العلمية بتنوعاتها المختلفة لم يتجاوز العقبات الفكرية التي لازمته أثناء هذا التحقيق الفكري ، ولم أجد له حسب تفكيري جذوراً فكريةً مُطَمئِنَة ، لذا فإن استعمال هذا النوع من الدراسات على مستويات بحثية واسعة ومتأصلة في كل العلوم تقريباً يجعل هذه الورقة البحثية في موقف ضعيف نسبياً ، ولا نتوقع أن ينعطف التيار الفكري فجأة ليغير مساره البحثي بسبب تأثيرات هذه الورقة ، إلاّ أن ما فعلته هذه الورقة هو وضع حجر أساس لإعادة النظر - على أقل تقدير - بما سار عليه الفكر البشري لقرون متعاقبة في نظرته للمعرفة التضادية والبحوث المقارنة .

ميثاق طالب كاظم الظالمي

١ محرم / ١٤٣٨ هـ

٤ / ١٠ / ٢٠١٦ م

صدر للمؤلف

١. اسم الزمان العلمي في المشتق الاصولي .
٢. قواعد في المستقبل المعنوي .
٣. قواعد في المستقبل الفكري .
٤. بين التوهم والتعقل – فلاسفة الأديان في الميزان .
٥. رحيق الحكمة .
٦. سلسلة ورقة بحث (١) : فكرة تهذيب المنهج (العلمي – القرآني) / البحث (الفيزيائي ـ القرآني) نموذجاً .
٧. سلسلة ورقة بحث (٢) : ضرورة الموقع العلمي للظن في معادلة المعرفة .
٨. سلسلة ورقة بحث (٣) : دحض المعايير الطبيعية في نظرتها للفلسفة الأخلاقية .
٩. سلسلة ورقة بحث (٤) : هل يمكن أن تكون بعض فروع الدين اصوله .
١٠. سلسلة ورقة بحث (٥) : ديناميكية العقلين .
١١. سلسلة ورقة بحث (٦) : المعنى الحقيقي للماهية وبطلان دعوى أصالتها مع الوجود .
١٢. سلسلة ورقة بحث (٧) : التجربة المعرفية المتعالية .
١٣. سلسلة ورقة بحث (٨) : أساسيات علم منطق اللامنطق .
١٤. سلسلة ورقة بحث (٩) : لو كان الله مجرد فكرة .
١٥. سلسلة ورقة بحث (١٠) : المثال الممنوع .
١٦. سلسلة ورقة بحث (١١) : البرهان على عدم ثبوت اسلوبنا في تفسير القرآن بالقرآن .
١٧. سلسلة ورقة بحث (١٢) : العقبات الفكرية في البحث المقارن .

العتبات الفكرية
في
البحث المقارن

لابد ان نُعَرِّف القارئ ضمن هذه الحدود ما هي تلك الدراسات المُقارنة ؟ وما هي اهميتها الأكاديمية ؟

إن الاجابة على هذا السؤال تجعلنا امام مهمة البحث عن نشأة ذلك النوع من الدراسات ، فلو كانت مقولة أن الاشياء تُعرف بأضدادها صحيحة وأن الدراسات اعتمدت عليها كان لابد من معرفة نشوء تلك الفكرة ، وإذا كانت هذه الفكرة غير صحيحة وأن الدراسات اعتمدت عليها ــ على فرض عدم صحتها ــ كانت تلك الدراسات بحاجة إلى إعادة نظر .

أما إذا كانت تلك الدراسات لها مناشئ أخرى فكرية فلا تحتاج إلى إدخال هذه الفكرة المعرفية ، إلا أن تكون صورة لذلك النوع من الدراسة لا سببا فعليا لنشوئها .

للاستفسار
quran.wisdom2016@gmail.com
07800378214 - 07822723131